بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد في شعر محمد إقبال*

نبيل فولي محمد

إن اتفقنا منذ البداية على أننا هنا ـ ونحن ندرس جانبا عقديا في شعر محمد إقبال ـ لسنا بإزاء كتاب في علم الكلام التقليدي بسمته الجدلي المعروف، فلا بد أن نوقن أننا لن نجد لديه تقسيمات وتشقيقات كلامية كتلك التي ذهب إليها متكلمة المسلمين طوال قرون، بل لن نعثر في قريضه على تلك التقسيمات الصوفية المعروفة للتوحيد، وإن كان شعره بالتأكيد يعكس تأثرا واضحا بالثقافتين الكلامية والصوفية ـ كما سنتبينه بعد قليل ـ إضافة إلى ما هو متوقع من مفكر مهموم بأمته ـ مثله ـ من توظيف التوحيد في علاج الأزمة الحضارية الحديثة التي يعيشها المسلمون منذ بضع مئين من السنين.

لقد وجد إقبال في عقيدة التوحيد الإسلامية ثراء أتاح له مساحات واسعة للتعبير عن معانيه، وتوظيفها في معادلات عقلية وذوقية وحضارية، ولعل هذا ما يمكن تبينه في العناصر الثلاثة التالية:

أولًا: الجانب الكلامي في عرض إقبال لمسألة التوحيد:

لا يحب إقبال الحيرة العقلية عموما، ويرى فيها ضياع الهمة، بل موتها، ويشير إلى أن سببها هو البحث فيما لا يجدي البحث فيه، أو ما لا يملك الإنسان أدوات البحث فيه، مثل كنه الإله الخالق، ولغز الحياة وسرها الدفين، فيقول في بعض شعره:

ما حياة الناس إلا سكرة ... وهي في اليقظة أو في الحلم
لا تضع عمرك في تفسيرها ... كثرة الحيرة موت الهمم(١)

---

* لقد سبق نشر بحث بعنوان: "التوحيد: مكانته ومميزاته في العقيدة الإسلامية" للأستاذ نبيل فولي محمد في العدد السابق وهو بمثابة مقدمة لما يأتي في هذا البحث.

١- **جناح جبريل**، صاغه بالعربية شعرا: زهير ظاظا، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٤٢٥. من قصيدة أردية عنوانها "وہ حرف راز کہ مجھ کو سکھا گیا ہے جنوں"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

یات کیا ہے، خیال و نظر کی مجذوبی ... خودی کی موت ہے اندیشہ ہائے گوناگوں

ولا يعني هذا لدى إقبال أن الإنكار يمكن أن يحقق لصاحبه الطمأنينة، بل على العكس من ذلك يقع المنكر المسكين في تناقض مع الحقائق يجعله مزقا، فقد ابتعد عن الطريق السوي فكره، وند بعيدا كما يفعل الجمل الفار من صاحبه، وتاه عقله في محاولات العودة إلى الاستقرار النفسي والرضى العاطفي بلا جدوى، يقول إقبال:

إنما المسكين قـــال لا إلهـــا فكره ند ومنه العقل تاها(٢)

وفي مواجهة صريحة مع نزعة الإنكار لوجود الله تعالى، أو الإلحاد الذي رعته دول وأيديولوجيات في القرن العشرين، يقول إقبال متنقلا بين جزئي شهادة التوحيد النافي والمثبت:

لو لم تسر في ظلام الترب نابتة ما نشرت في فضاء النور أغصانا
تقضي الحياة بـ "لا" في البدء نافية وفي النهاية "إلا" تكمل الشانا
إن لم تجئ بعدها "إلا" مثبتة كانت على الموت "لا" في الدهر عنوانا
إن أمة روحهـا لم يمض معتزمـــا عن "لا" فقد آذنت بالهلك إيذانا(٣)

وقد تكررت إشارته في شعره إلى ثنائية النفي والإثبات في "لا إله إلا الله"، وأكد ضرورة الجمع بين النفي الكامل للألوهية عن جميع الموجودات، والإثبات التام لها لله سبحانه وتعالى وحده، ومن ذلك قوله:

هب سيف "لا" لكافري وأبصر "إلا"ي كيف في الدنى تثور(٤)

٢- **رسالة الخلود: جاويد نامه**، نقله إلى العربية شعرا: حسين مجيب المصري، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٥٧. من قصيدة "حضور"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:

آنکه گوید لا اله بیچاره ایست گرش از بی رگنزی آواره ایست

٣- **ضرب الكليم**، نقله إلى العربية شعرا: عبد الوهاب عزام، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٦٠٠. من قصيدة أردية عنوانها "لا و الا "، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

فضلے نور میں رتنا رشاخ و برگ و بر پیدا سفر خاکی شبستاں سے نہ کر سکتا اگر دانہ
نہاد زندگی میں ابتدا "لا"، انتہا "الا" پیام ت ہے جب "لا" ہوا "الا" سے بیگانہ
وہ ملت روح جس کی "لا" سے آگے بڑھ نہیں سکتی ں جانو، ہوا لبریز اس ملت کا پیمانہ

٤- **رسالة الشرق**، نقله إلى العربية: عبد الوهاب عزام، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٣٢٠. من مقطوعة عنوانها "شعله در آغوش دارد عشق بے پروا ئے سن"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:

تیغ لا در پنجه این کافر دیرینه ده بانباز بنگر در جهان هنگامهٔ الای من

وقوله:

من "لا إله" لنا كأس يمنينا وكؤوس "إلا الله" كسرت بأيدينا

الكأس طافحة بالنفي في الأرواح والكأس في الإثبات تبكي ذهاب الراح(٥)

والاحتفاء بهذه المقابلة بين النفي والإثبات في شهادة التوحيد تنظر إلى النفي على أنه قمة التخلص والانعتاق إن كان منطلقا إلى الإثبات، أما الاكتفاء بالنفي فهو ارتكاس في حمأة الإلحاد الأحمق الذي لا يترك لصاحبه عقلا ولا خلقا(٦).

ولا يكتفي إقبال بتصوير الإلحاد على أنه مرض عقلي ونفسي لصاحبه، بل هو كذلك سبب لبوار الأمم والمجتمعات التي تدين به، يقول كما سبق قريبا:

إن أمة روحها لم يمض معتزما عن "لا" فقد آذنت بالهلك إيذانا

ومع ما بين عقلانية البراهين الكلامية وبين روح الشعر من ضعف التوافق، إلا أننا لا نعدم في شعر

٥- **جناح جبريل، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٤٢٣. من قصيدة أردية عنوانها "سما سکتا نہیں پہنائے فطرت میں مرا سودا"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

بالب تہذیب حاضر ہے مے "الا" سے ر کے ہاتھوں میں نہیں پیمانہ "الا"

دبا رکھا ہے اس کو زخمہ ور کی تیز دستی نے بہت نیچے سروں میں ہے ابھی یورپ کا واویلا

٦- على الرغم من رفض إقبال الحاسم للإلحاد، فإننا نراه في ديوان أصدره سنة ١٩٣٦م، أي بعد الثورة الروسية التي مكنت للشيوعيين بحوالي عشرين سنة يثني على الروس الذين اكتفوا ـ وفقا لنظرته هو نفسه ـ بجانب النفي من شهادة التوحيد، وتركوا جانب الإثبات، وتوقع بعد أن "أطاحوا بمعايير السنن" أن تراهم "يقهرون العاصفة... ونحو "إلا" يدفعون الموكبا"، أي يتجهون إلى إثبات وجود الله تعالى. ديوان: والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٩٧. انظر: قصيدته الفارسية: "لا اله الا الله"، خاصة قوله:

همچنان همچنان بینی که در دو فرهنگ ، ئی با خوابجی آمد به جنگ

روس را قلب و جگر دیدیده خون از ضمیرش حرف "لا" آمد برون

ن آن نظام ک ، را برزم زداست تیز نیشی بر رگ عالم زد است

کرده ام اندر مقاماتش نگه سلاطین، لا کلیسا، لا اله

فکر او در ، باد "لا" بماند مرکب خود را سوی "الا" نراند

آ ید ش آیدش روزی ز از زور خون ور جنون : خویش را ز با تند باد ، برون

در مقام "لا" نیاساید حیات می خرامد کائنات

لا و الا ساز ، برگ امتان اثبات مرگ امتان

إقبال نماذج لتأسيس قضية التوحيد على أدلة كلامية أو شبه كلامية، فيقول في قصيدته "في الحضرة الإلهية":

نحن قوم قد جهلنا أصلنـا نحن طير وأضعنا عشّنا
علمنا إن كان ساء جوهرا كان للعين الحجاب الأكبرا
وإذا بالعلـم حققنا النظر فالسبيل والدليـل يعتبـر
ويريك للوجود قشره ويقول: سل، تبين ســـره
رام تمهيد الطريق دائما أيقظ الشوق وكان نائمـا
وهب النار للقلب والوجيبا وبجوف الليل قد أهدى النحيبا
إنه ما فسر الدنيا لنـا عيننا ربى وربى قلبنـا
وإلى جذب وشوق يرفعك مثل جبريل أراه يبدعك(٧)

فبدأ بتأكيد التيه الذي وقعت فيه البشرية حين ابتعدت عن ربها، وضلت عنه، وحالها في هذا ـ كما شبهه ـ كحال الطائر الذي ضل عن عشّه، أو أضاعه بمرة. والعلم إن انحرف عن غايته، فمن الطبيعي أن يحجب الخلق عن غايتهم الكبرى ومولاهم الذي أبدع خلقهم، ومع هذا فإنهم إن نظروا وحققوا المسألة بالعلم والبرهان الصحيح كان ذلك دليلا معتبرا يرشدهم، كما أن الصفحة البادية لنا من الوجود تؤدي مهمة الدلالة على سر الوجود الكامن، وهو أن له صانعا وخالقا، وهذا الصانع وضع في فطرة الإنسان شوقا ملتهبا إلى ربه، ومع أن الخالق المعبود لم يفسر لنا الدنيا بأحداثها وأشيائها، إلا أنه أعد عيوننا لتبصر، وأفئدتنا لتعقل سر الإبداع فيما صنع وقدر.

٧- **رسالة الخلود – جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٥٥. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

ما ز اصل خویشتن در پرده ایم طائریم و آشیان گم کرده ایم
ر کج فطرت و بد گوهر است حجاب اکبر است
را مقصود اگر باشد نظر ، شود هم جاده و هم راهبر
بد پیش تو از قشر وجود تا تو پرسی چیست راز این نمود
جاد را ـ هوار ازسازد این ن شوق را بیدار ازسازد این ن
و داغ و تاب و تب بخشد ترا نیم شب بخشد ترا
جهان رنگ و بو دیده و دل پژورش گیرد ازو
ب بر مقام جذب و شوق آرد ترا باز چون جبریل بگذارد ترا

كما استدل إقبال على التوحيد أيضًا بالفطرة، فقال عن كلمة التوحيد كما في الترجمة العربية لبعض شعره:

"لا" و"إلا" بهما العدل انتظم　　كل نفي دون إثبات عدم

إن للفطرة في كل ضمير　　هاتفا يدعو لتوحيد القدير(٨)

وقد وظف دليل الفطرة في التراث الإسلامي في إثبات وجود الله تعالى أساسا، ولم يعرف في الاستدلال على وحدانيته سبحانه إلا على استحياء. وقد يساعدنا على فهم جانب مهم من هذه القضية أن نقف مع أهم موارد لفظ "الفطرة" في القرآن والسنة، والتي جمعها حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء". ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾(٩). ولا يعنينا التوسع في بيان هذا الأمر هنا، إلا بما يساعد على بيان موضع الفطرة من التدليل على وجود الله تعالى، وهل لورودها عند إقبال بهذه الصورة مسوغ.

فسر العلماء الفطرة هنا تفسيرين:

الأول: "دين الله" أو "الإسلام"(١٠)، وهو رأي جمهرة العلماء، ويعني أن الإنسان ينسجم

٨- والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نقله إلى العربية: أحمد الغازي، صاغه شعرا: صاوي شعلان، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٩٧. والشاهد من قصيدة فارسية عنوانها: "لااله الا الله"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد قوله:

لا و الا سانز و برگ امتان　　ات مرگ امتان

محبت پخته کی گردد خلیل　　تا نگردد لا سوی الا دلیل

٩- الحديث رواه البخاري، **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، الحديث رقم ٤٧٧٥، كتاب التفسير، باب سورة الروم، تحقيق وترقيم ومراجعة: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ، ج ٣، ص ٢٧٥، ومسلم، **المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١٢٢٦.

١٠- انظر: محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج ١٨، ص ٤٩٢ وما بعدها. وجلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ١١، ص ٥٩٩-٦٠١.

بفطرته مع كل ما من شأنه أن يسمى إسلاما، فهذا الدين جملة متفق مع ما تقتضيه الخلقة النفسية والطبيعة العقلية. المعنى الثاني: التوحيد، وإلى هذا ذهب ابن خطيب الري محمد بن عمر الرازي الإمام رحمه الله(١١)، وثمة روايات في **أصول الكافي** عند الكليني الاثنا عشري تذكر أن جعفرا الصادق رحمه الله فسر الفطرة في قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أنها التوحيد(١٢). وقال بهذا الرأي بعض المعاصرين أيضًا(١٣).

إذن هناك بعض الآراء التي ذهبت إلى الاعتداد بالفطرة شاهدا على التوحيد، وإن كان هناك أيضًا من أول ذلك بأن قال: "إن تفسير الدين المفطور عليه في هذه الأحاديث ـ يعني المروي عن جعفر الصادق وغيره من آل البيت ـ بالتوحيد لا يدل على اختصاص الدين في الآية بالتوحيد خاصة، بل إن ذكر التوحيد إنما هو من باب ذكر أظهر المصاديق وأجلاها"(١٤). وقد يكون هذا مخرجا مناسبا للتوفيق بين الرأيين، إلا أنه لا يمنع من وجود أدلة فطرية خالصة تثبت التوحيد خاصة، وقد ورد منها في المصدر نفسه الإشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾(١٥).

١١- فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **تفسير الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج ٢٥، ص ١٢٠- ١٢١، وكان المفسر الكبير قد فسر ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ في آية البقرة من بعض الوجوه التي أوردها بأنها الفطرة، وهو "دين الله، لأن الفطرة التي أمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل وشرع، وهو الدين أيضًا"، **تفسير الرازي**، ج ٤، ص ٩٥- ٩٦.

١٢- الكليني، **أصول الكافي**، ج ٢، ص ١٢، انظر مثلا: جعفر سبحاني (محاضرات): **مفاهيم القرآن**.. تفسير موضوعي يبحث حول الآيات الواردة في التوحيد والشرك، أعدها: جعفر الهادي، مطبعة اعتماد، مؤسسة الإمام الصادق، إيران، ط ٣، ج ١، ص ٤٧ وما بعدها.

١٣- انظر: أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط ١، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ج ٢١، ص ٤٥-٤٦.

١٤- جعفر سبحاني، **مفاهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٩، والنص الوارد هو من تعليقات المعد.

١٥- المرجع السابق، نسب أبو الفرج ابن الجوزي إلى أبي محمد ابن قتيبة أنه قال تعليقا على حديث الفطرة السابق: "فرق ما بيننا وبين أهل القدر في هذا الحديث: أن الفطرة عندهم الإسلام، والفطرة عندنا الإقرار بالله والمعرفة به لا الإسلام، ومعنى الفطرة ابتداء الخلقة، والكل أقروا حين قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. ولست واجدا أحدا إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبرا، وإن عبد شيئًا دونه، وسماه بغير اسمه، فمعنى الحديث أن كل مولود في العالم على ذلك العهد وذلك الإقرار الأول، وهو الفطرة، ثم يهود اليهود أبناءهم، أي يعلمونهم ذلك. وليس الإقرار الأول مما يقع به حكم ولا ثواب" أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج ٦، ص ٣٠١. وعند الرجوع إلى ابن قتيبة نفسه نجده يشير إلى أن بعض .. =

وقد قال بعض المعاصرين كما سبق نقله: "إن في العقل البشري ميلا إلى التوحيد"(١٦)، وهو ما يشعر به العاقل حقا حين يقارن بين التوحيد والشرك، فيجد نفورا من الثاني وميلا بيّنا إلى التوحيد، والاعتراف بكون سيد هذا العالم واحدا لا شريك له.

مهما يكن، فقد أشار البيتان السابقان إلى أن الفطرة دليل على التوحيد، وقد تمسك الشاعر فيهما بالجمع بين طرفي الشهادة "النفي والإثبات"، وجعل النفي وحده عدما، والكون المبسوط الصفحات أمام أعيننا بوحدة نظامه، والذي طويت منه أيضًا صفحات أخرى عن حواسنا ـ شاهدا كبيرا على وحدانية من أوجده.

ولا يعجب إقبال أن يتحول العلم الذي يدرس التوحيد إلى مجرد كلام تلوكه الألسن دون أن يكون معه تطبيق يصوغ صورة الحياة، وهو في هذا يوجه النقد صريحا إلى علم الكلام منطلقا من كونه قائما على "الكلام" لا على الفعل والتطبيق، يقول:

قوة كان في الحياة على الأرض ... فصار التوحيد "علم الكلام"
رده في الفعل غير مضيء ... جهلنا اليوم ما له من مقام
قائد الجيش قد رأيت غمودا ... من "هو الله" ما بها من حسام

= المعتزلة قد ادعى وجود تناقض بين حديث الفطرة وأحاديث تفيد مضي القدر الإلهي، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: "الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه"، ثم قال ابن قتيبة رحمه الله: "نحن نقول: إنه ليس ههنا تناقض ولا اختلاف بنعمة الله تعالى ولو عرفت المعتزلة معنى ذلك ما فارقت المثبتة، إن لم يكن الاختلاف إلا لهذا الحديث. والفطرة ههنا الابتداء والإنشاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبتدئها، وكذلك قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، يريد جبلته التي جبل الناس عليها. وأراد بقوله: "كل مولود يولد على الفطرة" أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، فلست واجدا أحدا إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبرا، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئًا دونه ليقربه منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوًا كبيرا... وليس الإقرار الأول مما يقع به حكم، أو عليه ثواب... وفرق ما بين أهل القدر وأهل الإثبات في هذا الحديث، أن الفطرة عند أهل القدر الإسلام، فتناقض عندهم الحديثان، والفطرة عند أهل الإثبات العهد الذي أخذ عليهم حين فطروا" أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي، بيروت، ومؤسسة الإشراق بالدوحة، ط ٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٩٩-٢٠١.

١٦- جيب وعادل العوا، **علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي**، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ص ٧٩.

ما درى الشيخ أن توحيد فكر دون فعل يعد لغو كلام(١٧)

إنه الحزن على ماض للتوحيد كان فيه قوة مؤثرة وفاعلة بما ارتبط به من فاعلية وإشراق يدفع إلى تزيين القناعة العقلية بنهج التوحيد العملي، وسبب هذا الفصام عنده هو الجهل بمهمة الأمة الإسلامية في هذا العالم.

ويبدو إقبال في خطابه الموجه إلى "قائد الجيش" وكأنه يخاطب كل من له كلمة مسموعة في الأمة، من قائد سياسي أو فكري أو اجتماعي، حتى يتنبهوا إلى أمر جلل، وهو أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ التي رفعت هما، وأعلت نفوسا، وسمت بقلوب، قد صار شأنها الآن شأن أغماد السيوف الخالية.

ولم ينس في هذه الأبيات أن يلمز "المولوي" أو الشيخ ـ الذي ينطلق من بين شفتيه خطاب التعليم والتثقيف الإسلامي في بلاده ـ بأن التوحيد المثبت بالعقول دون أن يدفع إلى العمل ـ كما يجري تعليمه في أكثر المدارس الدينية ـ هو لغو من اللغو، ولا قيمة له.

ثانيًا: الجانب الصوفي في التوحيد لدى إقبال:

إن البعد الذوقي في التوحيد ـ وسائر مسائل العقيدة الإسلامية كذلك ـ هو مما اهتم شعر إقبال بإبرازه، إذ لا يمكن أن يكون الإيمان مجرد عبارات وجمل ترددها الألسن وتمتلئ بها الأفواه، إنه خريطة تصوراتنا الكبرى تجاه الوجود الكبير وخالقه العظيم، وهو لهذا أجل مقاما وأرفع قدرا من الصورة الساذجة التي يفهم أكثر المسلمين التوحيد بها، ولهذا فلا بد ـ لكي يكون الإيمان إيمانا والتوحيد توحيدا ـ من أن تعيشه الذات المسلمة العابدة، وتنفعل به انفعالا عميقا يعيد صياغة مشاعرها تجاه الأشياء والأحداث، بحيث تنقاد النفس للهدى، وتنصاع لأوامر الله راغبة محبة مقبلة، وتدفع عنها نزغات الأبالسة ونزعات الهوى، يقول إقبال في بعض شعره:

١٧- **ضرب الكليم، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٥٧٤ - ٥٧٥. من قصيدة أردية عنوانها "توحيد"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

زندہ ت اں میں یہی توحید جبھی
روشن اس ضو سے اگر ظلمت کردار نہ ہو
ا ے میر سپہ! تیری سپہ دیکھی ہے
آہ !ا ق راز سے واقف ہے ملا نہ فقیہ

ج ہے، فقط اک مسئلہ علم کلام
خود سے ہے پوشیدہ مسلماں کا مقام
" ں ھو اللہ"، شمشیر سے خالی ہیں نیام
وحدت افکار کی بے وحدت کردار ہے خام

إنما الدين احتراق في الطلب وهو عشق ثم يتلوه الأدب (١٨)

يلخص شاعرنا بهذا البيت رؤيته للدين، ويستبعد أن يكون مجرد رسوم وصور، ويعده "تجربة" أو سعيا نحو خالق هذا الوجود لا يحول دون المضي والاستمرار فيه الاحتراق نفسه. وحتى لا تطغى ظلال الألم الذي يقترن بالاحتراق، فقد أضاف الشاعر إليه العشق الذي هو إقبال نفس يضنيها الحب، لكنه لا يقطع رجاءها عن المحبوب الذي يجب أن نتحلى في تصوراتنا عنه وتصرفاتنا معه بكامل الأدب.

وإقبال لا ينى يؤكد أن التوحيد ليس مجرد قضية عقلية تحكم فيها البراهين والأدلة التي تصوغها العقول رابطة بين ما هو معلوم للوصول إلى ما هو مجهول. فلا هو أهمل ـ بهذا التأكيد ـ وظيفة العقل في التمهيد والتأكيد على صحة الاعتقاد بالوحدانية، ولا هو حصر هذه القضية الخطيرة في الاستنتاج والاستدلال العقلي الخالص الذي ركز عليه علم الكلام، يقول في إحدى قصائده معترفا بالعقل، لكن دون استغناء عن الإيمان:

العلم أطلق الحياة الراقدة في شعوذات من عصور بائدة
من كل سحر عصرنا محاش بلا عصا الكليم لا يعاش
ذو العقل مثل نصل سيف عقله بألف أسلوب يتم صقله
والحب مسكين شريد زاهد وما له إلا طريق واحد
حجاجه تظل في تلهف لا يعرفون ترف التوقف(١٩)

ومع هذا، فهو يرى أن الجمع بين ذكاء العقل وزكاء القلب معا هو الصورة المثلى لإنتاج حياة

١٨- **رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٧١. من قصيدة تحت عنوان "خطاب به جاويد سخنى به نژاد او"، والبيت موضع الشاهد يقول فيه:

دين ايارايا سوختن اندر طلب انتهايش عشق وانعاژش اب

١٩- **جناح جبريل، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٤٥٢. من قصيدة أردية عنوانها "تازه پھر دانش حاضر نے کیا سحر قدیم"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

تازه دانش حاضر نے کیا سحر قدیم گزر ممکن نہیں بے چوب کلیم
س سو بھیس بنا لیتی ہے ق بے چارہ نہ ملا ہے نہ زاہد نہ حکیم
ں ہے غریبان محبت پہ حرام سب سافر ہیں، بظاہر نظر آتے ہیں مقیم
ہے گراں سیر غم راحلہ و زاد سے تو کوہ و دریا سے گزر سکتے ہیں مانند نسیم
مرد درویش کا سرمایہ تہی آزادی و مرگ ہے کسی اور کی خاطر یہ نصاب زر و سیم

طيبة وعالم رائع. ويبدو هذا الموقف نتيجة طبيعية لما رآه الشاعر الخبير بالشرق والغرب معا من تقصير الشرق في جانب وتقصير الغرب في آخر، ومعاناة البشرية هنا وهناك نتيجة لهذا الفصام، فلا التدين المنعزل عن الحياة حقق لها الأمان وأشبع ضروراتها، ولا التحضر المنعزل عن الدين حقق لها الطمأنينة النفسية واليقين العقلي. وهنا يبدو الشاعر كمن يحلم لبني جنسه أن يستعيدوا أسلابهم، ويقفوا على ضفاف الحياة وقوفا صحيحا، لا يحرمها أي ميزة يمكن أن يحصلها الجنس البشري من رحلته هنا، يقول إقبال:

إن في الغرب الذكا أصل الحياة　　والهوى في الشرق سر الكائنات
وبعشق يعــرف الله الذكاء　　ولعشق بالذكاء ذا العـلاء
وإذا العشق الذكاء صادقا　　عالما آخر قطعا حققـــا
أنهضن العالم الثاني اصنعن　　بالذكاء ذلك العشق امزجن(٢٠)

وتبدو كثرة الألفاظ المعبرة عن التداخل بين الروحانية الشرقية والعقلانية الغربية "صادق ـ اصنع ـ امزج" حرصا من شاعرنا على أن تكون العلاقة بينهما توحدا حقيقيا بين المزاجين، وليس جمعا شكليا أو مفتعلا بين التدين وصناعة الحياة، وهو ما يراه متحققا في القرآن الكريم، فيقول في القصيدة نفسها بعد أن يحذر الشرقيين من الافتتان بالإنتاج المادي للغرب:

وإذا دنيــا رثت ثوبهــا　　قدم القرآن دنيـا غيرهـا(٢١)

وفي سياحة كونية قطعها إقبال مع التوحيد بالعقل والقلب معا يقول عن كلمة التوحيد:

نقطة دار عليها العالم　　كلمة صار إليها العالم

٢٠- **رسالة الخلود ـ جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٧٣٨. من قصيدة "شرق و غرب"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

غربیان را زیرکی ساز حیات　　شرقیان را ق راز کائنات
زیرکی از عشق گردد حق شناس　　ر عشق از زیرکی محکم اساس
عشق چون یابا زیرکی همبر شود　　لم دیگر شود
نقش عالم دیگر بنه　　عشق را یابا زیرکی آمیز ده

٢١- **رسالة الخلود ـ جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٧٣٩. من قصيدة "شرق و غرب"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:

چو کهن‌بن گردد جهانے در بیرش　　دهد قرآن جهانی دیگرش

قوة فيها تدير الفلكا وبها الشمس تنير الحلكا
لؤلؤ البحر نما من نورها به الموج طما من نورها
نفحها صير طينا سنبلا وجدها صير ريشا بلبلا
في عروق الكرم منها شعلة وبطين الكأس منها لمعة
لحنها في مزهر الكون استتر أيها العازف يدعوك الوتر
نغمات فيك تسري كالدم أعمل المضراب في ذا النغم
كلمة التوحيد منك المقصد أنت للتكبير فيها توجد(٢٢)

فكلمة التوحيد هنا تترجم عنها معالم ومعان كونية، حتى إنه لا يخلو منها مظهر من مظاهر الوجود، فهي نقطة ارتكاز هذا العالم، ويؤكدها وحدة نظام هذا الوجود، وبها يدار الفلك، وتنير الشمس ما أظلم من الوجود، واللؤلؤ في البحر اقتبس بعض نورها، وموج البحر ارتفع وتحرك من ضوئها، وعطاؤها جعل الطين سنابل، وما فيها من وجد جعل من الريشة بلبلا يصدح بها في جنبات الوجود، وما في الكرم من ميزة عن كل نبات إنما هو قلب مشتعل شوقا إلى الواحد، وهكذا. ولعل بيت الشعر العربي المعروف لأبي العتاهية:

وفي كل شيء له آية تـدل على أنه الواحــد(٢٣)

لعل هذا البيت اختصر كثيرا مما قاله إقبال في هذه الأبيات، إلا أن التفصيل الذي حوته أبيات

٢٢- **الأسرار والرموز**، نقله إلى العربية شعرا: عبد الوهاب عزام، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٢٧. ويقابله في النص الفارسي قوله:

نقطۂ ادوار عالم لاالہ کار عالم لاالہ
چرخ را جز او گردندگی پایندگی رخشندگی
بحر را گوهر آفریدند از تیپ او تابش مہر تپیدن از تپش او
گل از موج نسیمش گل شود مشت پر از سوز او بلبل شود
شعلہ در ابتای تاک از سوز او خاک مینا تابناک از سوز او
نغمہ هایش خفتہ در ناز وجود نویت جویت ای زخمہ رہ انساز وجود
صد نوا داری چو خون در تزوان خیز و مضرابی بتار او رسان
ین سراپا سوختن اندر طلب انتهایش عشق و آغازش ادب
زانکہ در تکبیر راز بود تست

٢٣- أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم، **ديوان أبي العتاهية**، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٢٢.

إقبال قد أنار كثيرا من أفق التوحيد الرحيب، ووضع قلب العابد على معالم واضحة، أو أمثلة لتجليات التوحيد في هذا العالم.

وفي سياحة قلبية أو تجربة ذوقية أخرى مع التوحيد يقول إقبال:

إن هذي الصرخة اليوم التي تفضح أمري — صرخة القلب التي خبأتها طيلة عمري
صحبة الله نور ورضا الله حبور... — لي من التوحيد نار تلهب العالم بحثا
بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح — ذات شجو وحماس وندوب وجروح
أملي أنت وشغلي، طلبي أنت الوحيد — وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد(٢٤)

إن التجربة الإقبالية هنا قد أثارتها زيارته لمسجد قرطبة العتيق، مما يعني أن أفق تذوق التوحيد عنده لا ينتج فقط عن الاستغراق في الصلاة والذكر، ولا حتى التفكر في خلق الله ومصنوعاته العجيبة، بل قد تنتج التجربة ـ إضافة إلى هذا كله ـ عن المصنوع الحضاري الخالد لحضارة التوحيد حين يراه بعين روحه، ويبصره في ثنايا الأشعة التي بعثها الإسلام فأبصرت بها البشرية طريقها.

إن مسجد قرطبة الذي زاره إقبال في سنة ١٩٣٢م لم يبد لناظريه مجرد جدران قديمة قد أحسن السالفون رصفها، وإنما هو ـ كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي ـ "صورة للمسلم في هذه الأرض الحنون تجلت فيها أخلاق المسلم وصفاته، علو في الهمة، واتساع في القلب، وبساطة في المظهر، وبراءة في النية، وثبات على الحق، وإعلان للعقيدة والمبدأ، جمع بين الجلال والجمال، والأنفة والتواضع"(٢٥). وهو مع هذا فجر طاقة التوحيد الكامنة في قلب إقبال.

وفي رحلة ذوقية أخرى مع التوحيد صاغ إقبال قصيدته "كلمة التوحيد... لا إله إلا الله"، وفي مفتتحها يقول:

في مقام التوحيد يشدو خيالي — بصدى الحق من رجال الحال
إنما تدرك القلوب هداها — بصفاء الأحوال لا الأقـوال

٢٤- جناح جبريل، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٤٧٥ - ٤٧٦. من قصيدة أردية عنوانها "دعا"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

ہے یہی میری نماز، ہے یہی میرا وضو — ہی نواؤں میں ہے میرے جگر کا لہو
ت اہل صفا، نور وحضور وسرور...

٢٥- أبو الحسن علي الحسني الندوي، **روائع إقبال**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، ص ٧٦.

حرف "لا" مظهر لسر الجلال وهو للجور منذر بالـزوال
بعد نفي الظلام والظلم يبدو عند "إلا" إشراق صبح الجمال(٢٦)

ويلاحظ أن "إقبال" فيما تلا من أبيات هذه القصيدة قد عاد من تحليقه في عالم هذه الشهادة الواسع ليتواصل مع واقع الأرض، وهو ما يعني أن تحليقه ليس سلبيا ينقطع به عن دنيا الناس، وإنما هو زاد الروح التي لا تقدر على الحياة بين عوالم المخلوقات إلا بزاد التوحيد والإيمان وبنور الله الذي يقذفه في قلوب عباده، وهنا تجتمع رسالة الروح المحلقة السابحة في عالم الملكوت والكينونة البشرية الساعية في أرض الله للقيام بوظيفة الاستخلاف التي ناطها الله ببني آدم.

وإذا كان كثير من الناس لا يمكنه أن يعيش التوحيد ذوقا، ولا أن يطلع على سره، فذلك في رأي إقبال راجع إلى تلك الأصنام التي نصبوها في أنفسهم، فحالت بينهم وبين أن يطالعوا صفحة التوحيد مجلوة بادية الحسن، كما يرجع ضعف الشعور بهذه الأعماق العميقة للتوحيد إلى أن الفقه ـ ويعني به علم الظاهر ـ لا يبوح بهذه الأسرار، وإلى استسلام الإنسان لاستعباد الأرض والدنيا له. وعلى من يريد الوصول أن يتحرر من تلك العوالق، وألا يكتفي بهذه الظواهر، يقول رحمه الله:

إن سر التوحيد طوع بياني شدت في الرأس موثنا، ما احتيالي؟
رمز شوق بـ "لا إله" خفي ليس في الفقه بينا، ما احتيالي؟
كم سرور في حرب حق وزور لست في الحرب مطعنا، ما احتيالي؟
كم تجلي الآفاق نظرة حر حجب الرق أعينا، ما احتيالي؟
أي ملك مقام فقر ولكن تؤثر الذل مذعنا، ما احتيالي؟(٢٧)

٢٦- والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٩٤. من قصيدة فارسية عنوانها: "لا إله إلا الله"، ويقابل موضع الشاهد ـ مع تداخل مع أبيات تالية وتفصيل في النظم العربي ـ قوله:

نکته ئی میگویم از مردان حال الان را "لا" جلال "الا" نال

٢٧- **ضرب الكليم، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٥٩٤. من قصيدة أردية عنوانها "لا إله إلا الله"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

ثالثًا: توظيف إقبال للتوحيد في علاج الأزمة الحضارية للمسلمين:

كان التراجع الحضاري الذي أصاب المسلمين في عصرهم الحديث هما شاغلا للمفكرين والمصلحين المسلمين في مشرق العالم الإسلامي ومغربه عامة، ولعل محاولاتهم تقديم تشخيص واقتراح علاج لهذا التراجع الخطير، هو أكبر جامع فكري اتفقت عليه جمهرة هؤلاء المفكرين منذ حوالي مائتي سنة وإلى الآن.

ولعل محمد إقبال ـ الذي عاش واحدة من أحلك مراحل هذا التراجع ت ١٩٣٨م ـ أحد أبرز المفكرين الذين اعتنوا بدراسة أسباب هذا العطب الإسلامي وتقديم مقترحات لعلاجه في شعره ونثره، وقد كان التوحيد أحد العناصر التي وظفها إقبال في هذه المسألة.

وإقبال حين يوظف التوحيد حضاريا يتجاوز به مرحلة الإثبات العقلي والإحساس الذوقي إلى أفق واقعي يحتاج إلى أنوار هذا التوحيد، وهذا يعني أن التوحيد الإقبالي ليس توحيدا منعزلا عن الحياة، بل هو المقيم في لبها، يهذب النفوس، ويؤدب الجوارح، ويقاوم الشياطين، ويهد عروش الطغاة.

والحقيقة أن "إقبال" لم يتركنا للحدس كي نفهم موقفه من هذه المسألة، بل ذكر ذلك صراحة في بعض مؤلفاته الأخرى، فقد نقل في **تجديد الفكر** عن أحد صوفية الهند الكبار قوله: "صعد محمد النبي العربي إلى السموات العلا ثم عاد، وأقسم بالله لو أنني وصلت إلى هذا المقام فلن أعود أبدا"!![٢٨]، ومع أن العبارة قد تبدو صادمة لبعض العقول، ومدهشة لبعضها الآخر، إلا أن التحليل الإقبالي لها يأخذنا من الصدمة والدهشة إلى أفق فكري يحدد من خلاله أصناف العابدين، فمنهم من اقتصر على الذوق وشغلته حلاوته، ومنهم من تذوق أعظم تذوق ونزل مع هذا بإيمانه ميدان الحياة، يغرس الإيمان في القلوب، ويصنع واقعا أرضيا موافقا له، يقول إقبال معلقا على قولة عبد القدوس الجنجوهي السابقة: "تجربة التوحد ومقام الشهود عند الصوفي وما يستشعره في هذه الحال من سكينة هي غاية نهائية بالنسبة له،

بیاں نکتہ توحید آ تو سکتا ہے	ے دماغ میں بت خانہ ہو تو کیا کہیے
وہ رمز شوق کہ پوشیدہ لاالہ میں ہے	یق فقیہانہ ہو تو کیا کہیے
سرور جو حق با باطل کی زلزلہ میں ہے	تو ب و ضرب سے بیگانہ ہو تو کیا کہیے
ہاں ں بندہ حر کے مشاہدات ہیں کیا	زی غامانہ ہو تو کیا کہیے
مقام ہے کتنا بلند شاہی سے	روش کسی کی گدایانہ ہو تو کیا کہیے!

٢٨- محمد إقبال، **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة: محمد يوسف عدس، تقديم: الشيماء الدمرداش العقالي، مكتبة الإسكندرية، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ٢٠١١م، ص ٢٠٣.

ذروة أشواقه ومنتهى مطامحه. أما بالنسبة للنبي فالأمر جد مختلف، إنها يقظة عارمة لقواه النفسية الجوانية، بداية مهمة روحية من شأنها أن تهز العالم من حوله، تجربة جديدة مقدر لها أن تغير العالم الإنساني وتحوله تحولا كاملا"(٢٩).

إن شخصية العابد الساكن في قلب التاريخ والجغرافيا، والتي تمثلت في أتم صورها في النبي أظهرته على أنه "الكائن المتناهي الذي يغوص إلى أعماق حياته الروحية اللانهائية، حيث يتلقى من فيض الوحي الإلهي، لا ليبقى هناك متأملا، وإنما ليطفو مرة أخرى صاعدا إلى أعلى بقوة دافعة جديدة، فيحطم القديم، ويكشف عن توجهات جديدة للحياة"(٣٠).

فالمهمة النبوية التي ينبغي لأتباعه أن يتخذوه قدوة فيها(٣١) تتجاوز الذوق الإيماني إلى السعي بهذا الإيمان في موطن الاستخلاف الإلهي للبشر الأرض، حيث يعيش المجتمع الإنساني المحتاج بقوة إلى أن يربط سعيه الأرضي برب الوجود.

وإذا عدنا إلى شعر إقبال، فسنجد التوحيد وقد تجلى فيه معلما مميزا للأمة الإسلامية التي حملت ـ دون غيرها ـ لواءه صافيا في العالمين، ففي حين توزعت البشرية معبودات أرضية وسماوية من حجر وشجر وأصنام وكواكب ونجوم، كان المسلمون يهتفون باسم الله الواحد في أذانهم وصلاتهم وحجهم وجهادهم، حتى هدوا الشعوب التائهة والأمم الضالة إلى ربها:

من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا ... من دونك الأحجار والأشجارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا ... وهدى الشعوب إليك والأنظارا(٣٢)

٢٩- المرجع السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

٣٠- المرجع السابق، ص ٢٠٥.

٣١- المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٣٢- صلصلة الجرس، نقله إلى العربية نثرا ثم صاغه شعرا الشيخ الصاوي شعلان، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٩٤.
من قصيدة "شكوه" الشهيرة، وقد كتبها الشاعر بالأردية، ويقابل الأبيات موضع الشاهد قوله:

ورنہ امت ترے محبوب کی دیوانی تھی؟ ... ہم ہلے تھا عجب تیرے جہاں کا منظر
ں سجود تھے پتھر، کہیں معبود شجر ... گر محسوس تھی انساں کی نظر
مانتا پھر کوئی ان دیکھے خدا کو کیونکر ... تجھ کو معلوم ہے، لیتا تھا کوئی نام ترا؟

فالتوحيد هنا رمز وعلامة وشعار للأمة المسلمة، وهي حاملته وناشرته ومسوقته في العالم، وهادية المجتمعات الإنسانية إليه، فقد حازته لنفسها أول مرة، إلا أنها لم تستأثر به، بل طارت به في دنيا البشر تذيعه وتعبد به الناس لرب العالمين وحده، بعد أن كانت الجهالة والوثنية والشرك هي الحاكم الأكبر في دنيا الناس.

وقد فرض "إقبال" فكره على شعره كثيرا، فلم يكن مجرد مشاعر مرسلة، ولا رمية من غير رام، بل بدا واضحا أنه يصوغ أفكارا في إهاب شعر رقيق، ويقدم معاني إصلاحية في ثوب من قريض محلق، وبدا توحيد الله تعالى إحدى أدواته الأهم في هذا المضمار الصعب، مضمار إصلاح الأمم والشعوب وتصويب مسارات المجتمعات، وقد تأكد هذا في عناوين قصائده كما تأكد في أبياته، فمن عناوين قصائده في ديوان **الأسرار والرموز** قصيدته "في معنى أن الخوف والحزن واليأس أمهات الخبائث وقاطعات طريق الحياة وأن في التوحيد دواء هذه"(٣٣).

وإذا كانت وظيفة التوحيد في هذه القصيدة وظيفة سلبية، حيث يقاوم الأخلاق الرديئة، ويعالج أمراض القلوب والنفوس، فقد بدا دوره إيجابيا تماما في مواضع أخرى كثيرة من شعره، فصوره إقبال على أنه المرتكز أو الركن الأول الذي تقوم عليه الأمة الإسلامية، أو هو المحدد الأول لشخصيتها(٣٤)، كما عنون قصيدة أخرى في الديوان نفسه بـ: "في بيان أن الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدها الأمكنة"(٣٥)، وجعل "مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره"(٣٦) في قصيدة ثالثة.

وقد امتد أفق العالم واتسع أمام إقبال حين رآه من سماء التوحيد، ولم يحبس نفسه فيما تحت قدميه من الثرى، لذلك ألح كثيرا على رفض فكرة القومية، وجعل الارتباط القائم على العقيدة هو الأصل في الصلة بين الناس، وما دونه من ارتباط بالقوم أو الوطن اعتبره صورا شائهة للتلاقي البشري، فيقول عن

٣٣- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ١٩٧. وبالفارسية: "در معنى اينكه يأس وحزن وخوف ام الخبائث است وقاطع حيات وتوحيد ازاله اين امراض خبيثه مى كند".

٣٤- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ١٩٥. وبالفارسية: "اركان اساسى ملية إسلاميه: ركن اول: حيد".

٣٥- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٠٧. وبالفارسية: "در معنى اينكه چون ملت محمديه مؤسس بر توحيد ورسالت است پس نهايت مكانى ندارد".

٣٦- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٢٥. وبالفارسية: "در معنى اينكه جمعيت حقيقى از محكم گرفتن نصب العين مليه است ونصب العين امت محمديه حفظ ونشر توحيد است".

النبي صلى الله عليه وسلم:

أمة ملء الدنى قد أسسا	جعل التوحيد فيها أسسا
صارت الدنيا لنا مسجدا	إذ أشاع الفضل فينا وهدى...
شرف الشمس مسير مطلق	فيه من فوق البرايا تخفق
لا تكن نهرا من السحب يمد	وكن البحر عبابا لا يحد
اقصدن تسخير كل العالم	لترى سلطان أهل العالم
لا يقيدك مقام في الورى	وكن الحوت يسيح الأبحرا
كل من حرر من ذل الجهات	فلك يزهر من كل الجهات
ترك الورد شذاه فسرى	في فسيح المرج عطرا نشرا(٣٧)

وكأن الفكرة القومية ـ بصيغها المتطرفة على الأقل ـ تمثل أحد العراقيل التي يمكن أن تحول دون نهضة المسلمين، وأنه لا بد من ضبط النزوع القومي والخروج من أسره وضيق أفقه، وإعادة الناس إلى الأصل الذي جمعهم عليه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو التوحيد والإيمان والإسلام.

ويوظف إقبال فكرة التوحيد في التأكيد على وحدة الأمة، والابتعاد عن النعرات القومية التي فرقت المسلمين في مواضع وبصور متعددة، فيقول في حوارية أجراها مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قلت: يا صفوة أصحاب الصفاء	مطلع الديوان من أهل الوفاء
بك قر الأس في بنياننا	فانظرن ما الطب من أدوائنا؟

٣٧- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٠٩. من قصيدة "در معنی اینکه چون ملت محمدیه مؤسس بر توحید ورسالت است پس نهایت مکانی ندارد"، ویقابل الأبیات موضع الشاهد هنا قوله:

حکمتش یک ملت گیتی نورد ... اساس کلمه ئی تغییر کرد
تا نا بخشیشهای آن لطان دین ... بعد ما شد همه روی زمین...
مهر آزرا آزادی رفتن آب آبیست ... عرصه ی آفاق زیر پای دست
هیچو جو سرمایه ازبیابان مخواه ... بیکران رشد در جو پایاپیان مخواه
بود بحر تلخ یکیک ماده دشت ... زیبائی مروارید و از شرمب گشت
بایدت آهنگ تسخیر همه ... تا تو می با ما فراگیر همه
صوت ماهی به بحر آباد شو ... یعنی از قید مقام آزاد شو
هر هر کو از قید بیت آزاد شد ... ان چون فلک در شش جهت باباد شد
بوی گل ازاد ترک گل جولانگر است ... در فراخای چمن خود گسترست

قـال: حتـام أسيـر الوهم؟ سورة الإخلاص بـــرء السقم
نفس في كل صدر جائل وهي للتوحيـد ســـر هائـــل
فاجل هذا السر في كل الفعال ولتكن منـه مثالا للجمال
الذي سماك عبـدا مسلمـــا بك للوحدة في الدنيـا سمـا
قلت: أفغان وترك وعجـم لم تزل عما تعودت القـــدم
طهرن الحق من هذي السمات اقصد البحر وخـل القنوات
يا أسيرا لسمـات ويحكا قد بعدت اليوم مـن دوحتكا...
عابد الواحد، وحد واهجرن كل تفريق وللحق ارجعن(٣٨)

ولعل اختيار الشاعر أبا بكر لإجراء هذا الحوار معه يرجع إلى ما مثله في التاريخ الإسلامي من نموذج للعربي القح الذي جمعه الدين مع ممثلين عن أمم شتى، فرس وحبش وروم، حتى ذابت العصبية الجاهلية. كما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أول من جمع المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلمة واحدة، وواجه بهم الأخطار التي هددت وجود الإسلام برمته.

وقد سأله الشاعر هنا عن علاج لداء الأمة، وقصد به الفرقة والتشرذم، فأشار إلى أن سورة الإخلاص التي تكثرون قراءتها، فهي "نفس جائل في كل صدر" ـ فيها هذا الدواء الذي تبحث عنه، فهي

٣٨- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٣٧- ٢٣٨. من مقطوعة "خلاصۂ مطالب مثنوی در تفسیر سورۂ اخلاص.. قل هواللہ احد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

گفتمش ای خاصۂ خاصان عشق سر مطلع دیوان عشق
پخته از سنت اساس کار ما چاره ئی فرما پی آزار ما
تا کی در هوس گردی اسیر و تاب و اتاب از سواخ اخلاص گیر
اینکه در صد سینه پیچد یک نفس سرش از اسرار توحیداست و بس
رنگ رنگ ا بر کن مثال او شوی در جهان عکس جمال او شوی
نامۂ نام تو مسلمان کرده است از دوئی سوی یکی آورده است
نویشتن را ترک و فغان خوانده ئی بای بر تو آنچه بود، مانده ئی
ان وارهان نامیده را از تنامها با ساز با خم در گذر از جا ها
ای کار تو رسم نام افتاده ئی از درخت درخت خویش خام افتاده ئی
با یکی از دو بردار رخت ت حدت خود را مگردان لخت لخت...
تو در خود را بخود پوشیده ئی در دل آسیب لب چیده ئی

"للتوحيد سر هائل"، ولم يبين له هذا السر بصراحة، غير أنه طالبه بأن يتجلى توحيده لله في أفعاله حتى يكون مثالا للجمال، ويترك عادات الجاهلية التي دنست صورة الحق، وفرقت الأمة إلى أفغان وترك وعرب وعجم، والأولى أن يبقى على الأصل تاركا هذه الفروع: "اقصد البحر، وخل القنوات".

وفي القصيدة نفسها "خلاصة المطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص" وتحت عنوانها الفرعي "لم يلد ولم يولد" واصل الشاعر أنفاسه وأطالها في الدعوة إلى هجران القومية، ودعا المسلمين، أهل التوحيد إلى توحيد صفهم وكلمتهم، ومن شعره في هذا الصدد قوله:

ما من الأنساب يقوى وصلنا ... ليس من روم وعرب يقوى أصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب ... قد حبانا ذاكم الوصل القريـــــب...
من ثوى في نسب أو بلـد ... قد غفا عن ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(٣٩)

وإضافة إلى القومية، فإن الأمم الحديثة قد صنعت لنفسها أصناما أخرى من الملذات والمطامع دفعتها دفعا إلى إيقاع الظلم بغيرها، ولا يحطم هذه الأصنام سوى التوحيد، يقول إقبال:

يعشق الأصنام عقل الأمم ... ناحت أو عابد للصنم
هو أحيـا سنـة مـن آزرا ... محدثا فيها إلها للـورى...
وعلى أقـدام هذا الصنـم ... ذبح الإنسـان ذبـح الغنـم
أيها الشارب من كأس الخليل ... يا حمي النفس من طاس الخليل
سيف "لا موجود إلا هو" خذ ... وبه الأصنام هذه فاجذذ(٤٠)

٣٩- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٤٢. من قصيدة "خلاصۂ مطالب مثنوی در تفسیر سورۂ اخلاص... لم يلد ولم يولد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

نیست از روم و عرب پیوند ما ... پابند نسب پیوند ما
به محبوب حجازی بسته ایم ... زین جهت بالا یکدگر پیوسته ایم...
هر که پا در بند اقلیم جداست ... خبر از لم یلد لم یولد است

٤٠- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٢٨. من قصيدة "در معنی اینکه جمعیت حقیقی از محکم گرفتن نصب العین ملیه است ونصب العین امت محمدیه حفظ ونشر توحید است"، والأبيات موضع الشاهد هي قوله:

وإقبال يلح من حين إلى آخر على أن التوحيد ليس فقط علاجا لمشكلات نفسية وعقلية يسببها الإلحاد والحيرة، بل هو أيضًا مهذب للفرد الذي ينفعل به ويلتزم سبيل التقوى، وكذلك يخرج الأعاجيب من الأمم التي تعتنقه، يقول:

يرفع التوحيد فردا بالتقاة ... يجعل الشعب أحاديث الرواة
وعن الشبلي سمعت وأبي ذر ... طغرل كان لشعب ثم سنجر
بالتجلي كان للمرء الثبات ... إنه للفرد والشعب الحياة
ولقد نالا بتوحيد كمالا ... حققا هذا جلالا ذا جمالا(٤١)

وهذا المقطع يشترك في التنويه بتأثير التوحيد على الفرد وكذلك تأثيره على المجتمع، وإن كان الأول أكثر وضوحا فيه، حتى ضرب لنا مثلا ببعض صوفية الزمن الماضي وزهاده الذين فاقوا الملوك جلالة ومكانة في أمتهم، أو كانوا مثل أعظم الملوك "مثل بعض ملوك السلاجقة العظام مثلا"، وهنا يبدو الموحد الحقيقي عامل قوة كبيرا لأمته.

وقد تجلت قيمة الشخصية الموحدة في روعة في إحدى قصائد ديوانه "جناح جبريل"، ومنها قوله:

توحيد الله لنا نور ... وحياة القلب توحده
لو كل رياح في الدنيا ... اجتمعت لا تقدر تخمده
يحكيك جمالا وجلالا ... رجل لله تعبده

انسان بت پرستی بت گری ... ہر زمان در جستجوی بُری
با باز آرزی اخداخته است ... ر تیز تازه تر پروردگارے ساز است...
کشته شد چون گوسفند ... پیش پای این بت نارجمند
ن که خوردستی ز مینای خلیل ... خونت ز صهبای خلیل
باطل حق پیرہن ... "لا موجود الا ہو" بزن

٤١- **رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٥٨ – ٨٥٩. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

فرد از توحید لاہوتی شود ... از توحید جبروتی شود
یزیدیزید وشبلی وبذوذر ازدست ... امتان را طغرل وسنجر ازوست
بی تجلی نیست آدم را ثبات ... جلوۂ ما فرد و را حیات
ہر ہر راز از توحید می گیرد کمال ... زندگی این جا جلال، آنجا جمال

وحماس ضحاه ووجد مساه وما يخفيه له غـــده
ومســـــرته ومحبتـــــه وتـواضـعـــه وتـــــودده
عذب الكلمات خفيف الروح رقيق القلب مسهده(٤٢)

فهنا يبدو التوحيد قوة توقظ ملكات النفس، وتنبه قواها الغافية، هو نور يملأ جنبات النفس المؤمنة، ويحيي القلب بتوحيد الوجهة التي يقصدها، والبعد عن شتات الشرك وضيعة الإلحاد. ولهذا التوحيد من القوة ما يعجز ذوي القوة عن إخماده أو إخماله، فهو يصوغ شخصية صاحبه من مزيج الجمال والجلال، وينشطه للعمل بالنهار، ولعيش رحلة المواجيد بالليل، والثبات أمام أقدار الله الزاحفة عليه بالمسرات مرة وبالضراء مرة في كل وقت، بل إن قسماته الأخلاقية ليصوغها التوحيد حين يخالط الناس بالمسرة والمحبة والتواضع وحسن الكلام ورقة القلب.

ثم يقول إقبال في القصيدة السابقة من **جاويد نامه** مشيرا إلى منزلة الأمة الموحدة في العالمين:

ولأهل الحق دعوى وحـدت ولهم قلـــب ودور أبعــدت
تصبح الذرة شمسا بالنظـر نظــرة كـن، والإلـه ما استتر
نظـرة بالله كيـف تزدريهـا والتجلي كان للتوحيـد فيهـا
وإذا التوحيـد شعبـا أسكـرا فمكان الشعب في أعلى الذرى
إن روح الشعب بين الناس كانت للحلول قـط جسمـا مـا أرادت
باجتماع القـوم للروح البقـاء والشتات فيـه للروح الفنـاء(٤٣)

٤٢- **جناح جبريل، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٤٧٩. من قصيدة أردية عنوانها "مسجد قرطبه (پاية کی سرزمين بالخصوص قرطبہ میں لکھی گئی)"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

ہ اللہ ھو' میرے رگ و پے میں ہے ہے جو تیرا جلال و جمال ، خود خدا کی دلیل
وہ جلیل و جمیل ، تو بھی جلیل و جمیل تیری پایئدار ، تیرے ستوں بے شمار
شبستاں صحرا میں ہو جیسے ہجوم نخیل باے در و بام پر وادی ایمن کا نور

٤٣- **رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٦٠. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

والتوحيد في نظر إقبال يعلم صاحبه الشجاعة والإقدام، لأن الموحد الحقيقي يؤمن بأن مقدر الأقدار واحد عدل، وهو الله تعالى، فلا إنس ولا جن، ولا وحش مفترس ولا طير جارح يملك من قدره هو ـ فضلا عن قدر غيره ـ شيئًا، ومقدر الأقدار له حكم فيما يجريه في كونه وعلى خلقه، ولكن ـ وهو يتصرف في ملكه لا ملك غيره ـ لا يظلم أحدا شيئا، يقول إقبال متحدثا عن أمجاد المسلمين:

لم نخش طاغوتا يحاربنا ولـو نصب المنايا حولنا أسـوارا
ندعو جهارا لا إله إلا الذي صنع الوجود وقدر الأقـدارا(٤٤)

ويتسع إقبال في بيان خصال الموحد وتأثيره في العالم، فيذكر أن إيمان المؤمن ليس حبيس قلبه، بل يتعدى أثره إلى هذا العالم الواسع، ويتجلى خلقا وسلوكا في حياة البشر، يقول تحت عنوان: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾:

صاح ما المسلم للدنيا احتقر عامرا بالحق قلبا، قد عمر
زهرة من شقر في القنـــن لم ترعها طلعة من مجتـــن
نفسا ينفخ فيها السحـــر فتـراها لهبا يستعـــــر..
الندى منها نعاسا يغسـل وشعاع الشمس بها قبـــل
﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أمسك بها واشدد يدا لترى في الناس حرا أوحدا
ذلك الواحد لا شرك لـــه عبـده يأبى شريكا مثلـه
قد سما المسلم أعلى من سما ليس يرضى بمسام في السما..

چیست ت ایکه گوئی لاالله با ہزا با ہزاران چشمودان یکیک نگه
اہل حق را حجت و دعوی یکیست خیمه های ما جدا دلها یکی است
ذره ها ازیک نگاه آفتاب یک نگه شو تا شود حق بی حجاب
یکـ را بچشم کم مبین از تجلی های توحید است این
ن می شود توحید مست ت و جروت می آید بدست
روح ملت را بوجود ازاز انجمن ج ملت ـ قتاج بدن
تـ ش تا وجودش را ازنود از صحبت است چون شیرازهٔ صحبت شکست

٤٤- صلصلة الجرس، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٩٤ - ٩٥. من قصيدة "شكوه" الشهيرة، وقد كتبها الشاعر بالأردية، ويقابل البيتين موضع الشاهد قوله:

م نے تو جنگوں کے مصیبت کے لیے اور رتے تھے ترے نام کی عظمت کے ہے

حمل الكونين طهرا ظهـره	وحوى برا وبحرا صـدره..
جمره كل لهيب في حشـاه	جوهر فيه كمال للحيـاه
ليس في ضوضاء هذي الأمم	نغمـة إلا أذان المسلم
هو في العفو وفي البذل عظيم	وهو حين القهر ذو طبع كريم
لطفه في الحفل جبر المنكسر	قهره في الحرب صهر للحجر
هو في الحفل صفير البلبل	وهو في البيد انقضاض الأجدل
قلبه تحت سماء لا يقـر	هو فـوق الزهر من إن يستقـر
طائر ينقر نجم الحبـك	طائرا فيما وراء الفلـك(٤٥)

وهي مجموعة من الصفات تعبر عن قوى نفسية وعقلية وجسدية تجتمع للمسلم الموحد على الحقيقة فتجعله أسطورة "حقيقية" في هذا العالم، فهو نغم رقيق كما البلبل في الحفل، وهو صقر شديد الانقضاض في الحرب، هو لطيف حان يجبر المنكسر وقت السلام، ولكنه في الحرب يصهر الحجر، وهو مع هذا يعيش هموم العالم ومشاغله.

ويبقى الإلحاح الإقبالي على عقيدة التوحيد بمعناها الواسع والعميق معلما واضحا في شعره،

٤٥- **الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٢٤٣. من قصيدة "خلاصة مطالب مثنوي در تفسير سورة اخلاص.. ولم يكن له كفوا أحد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

چشم از جهان بر بسته چیست؟ فطرت این دل کج پیوسته چیست؟
کوه بر سر کوهی دمید کوشه دامان نخچیری ندید
آتش او شعله ئی گیرد به بر از نفس بالی نخستین سحر...
بوشه اول شعاع آفتاب شبنم از چشمش بوبید گرد خواب
رزمگه ئی با لم بگزار مایید قوی تا تو در اقوامی همتا شوی
آنکه ذاتش واحد است و لاریک یک اندیشه بندم اش از نه با ما ریک
مالای هر مالاتری بر نتابد همسری...
کشت ما کشد بار دو عالم دوشش او بحر و بر پروردهٔ آغوش او...
در گره صد شعله دارد اخگرش زندگی گیرد کمال از جوهرش
در فضای این جهان هایی و هو نیست جز تکبیر او
عفو و عدل بذبذل و احسانش عظیم هم بقصر اندر مزاج او کریم
در او بزر بزم با خاطر نواز نواز سوز او در بازم با آهن گداز
در گلستان با عنادل هم صفیر در نیامان ج بانباز صید گیر
زیر گردون همی نبایید دلش بر فلک گیرد قرار آب و گلش
شاخ منقار بر اختر زند ای این کهنه چنبر بر زند

حتى إنه ربما صاغ فيه القصيدة الكاملة التي تقدم التوحيد أساسا لمشروع نهضوي للفرد والمجتمع، فيحقق للفرد ذاته، ويرقى بأحساسيه، ويسمو بأهدافه، ويقوي ساعده، ويؤلف بين أبناء المجتمع، ويوجههم إلى خير الإنسانية وصلاحها، فالتوحيد يفتح باب الحياة، ولا يقبل أن ينعزل أو ينزوي، بل يمضي بصاحبه إلى قلب الحياة الاجتماعية قاهرا المهانة ورافضا الذل، ومتمتعا باليقين، ومن أمثلة ذلك قصيدته "لا إله إلا الله" في ديوان: **پس چه بائد كرد اے اقوام شرق**، أو **والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق**، ولعل بعض الشواهد الشعرية السابقة قد تناولت شيئا من هذا، إلا أنه أضاف في هذه القصيدة تقديم نموذج لأمة التوحيد في زمانها الأول وكيف بالتوحيد سجلوا آيات الفخار:

يا لها من ذكرى لأمجاد العرب ... آية كبرى وتاريخ عجب
حرروا أقدارهم بالعزمات ... في جميع الكون في كل الجهات
فازدهى من نورهم كل مكان ... وتغنى باسمهم كل زمان
لم تدم "عزى" ولم تبق "مناة" ... هوت الأصنام تحت الضربات..
هؤلاء العرب الصيد الأباه ... وحدوا الخلق بتوحيد الإله..
وسموا فوق الدراري منزلا ... كل هذا كان من أنوار "لا"
بينما العالم كالعظم الرميم ... في سهوب الأرض أو دير قديم
أنشأوا دنياه في خلق جديد ... وأقاموها على النهج الرشيد..
قد أزال العرب من لوح القلوب ... نقش غير "الله" علام الغيوب
فأقاموا في شمال وجنوب ... ثورة الإيمان في كل الشعوب(٤٦)

٤٦- والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، **أعمال محمد إقبال الكاملة**، ص ٨٩٤- ٨٩٧. والشاهد من قصيدة فارسية عنوانها: "لا إله إلا الله"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد قوله:

با تو میگویم ز ایام عرب ... تا فنی پخته و خام عرب
ریزد الوند از سرب الاملات ... در جهات باز بند جهات
هم جهانتابی لهب کسری حجاک ... قیصر و کی ها هلاک از دست او
دشت از خون او پر از یارانش پدرد ... گاه بحر از زور طوفانش پدرد
عالمی در آتش او مثل خس ... همه هنگامه "لا" بود و بس
اندرین دیر کهن چیهم تپید ... تا ز "لا" تازه نفس آمد پدید
مانگ حق از صبح خیزیهای اوست ... هر سحر از خم ریزیهای اوست
اینکه شب لاله روشن کرده اند ... ناز از کنار جوی او آورده اند
لوح دل از نقش غیر الله پاک ... از کف خاکش دو صد هنگامه رست

وأحسب أن هذا موضع مناسب للمغادرة، فأختم بهذا النموذج العملي للإنجاز العظيم الذي حققته أمة التوحيد لأول عهدها بهذا العالم، فقد انطلقت به تعبد الناس لله الواحد، وتهدم الأصنام في النفوس قبل أن تهدمها في الواقع المحيط، وتنشط القوى الكامنة في البشر حتى تتجه إلى الثورة على كل باطل، ومدافعة كل منكر.

Taw ╝d in the Poetry of Muhammad Iqbal

Without going into the intricacies of theological discussions or the depths of Sufi musings on this cardinal doctrine of Islam, the writer presents an analysis of the central space occupied by taw ╝d in the poetry of Iqbal. He demonstrates the superb genius of Iqbal in relating this doctrine to the existential problems and plights of the present day Muslims. The writer extensively cites from the Urdu and Persian poems of Iqbal to show how this great poet philosopher linked the wholesome development of man with the operationalization of taw ╝d in human thought and conduct. Additionally, the writer shows the depth of Iqbal's poetic imagination in capturing the multi-layered aspects of this fundamental doctrine.

****